اصل الانسان ومنشؤهُ

تاريخ اشهر الجماجم التي وجدت ودلالتها

العلاقة بين الانسان والقردة

يقف الانسان على قمة « الحاضر » ينظر منها الى الوراء والى الامام ، ليتعرف اصلهُ ومنشأهُ وليتكهن بمستقبلهِ ومصيرهِ . على ان العلوم تتفاضل في فائدتها المادية . فمنها ما لا يمكن الاستغناء عنهُ كالعلوم الطبية التي بها حفظ الصحة ودفع المرض . والعلوم الزراعية التي بها احياء الارض وتكثير غلتها . والعلوم الآلية التي بها تسهيل الاعمال وتقليل المشاق . ومنها ما فائدتهُ ادبية ترتاح لها النفس في الغالب وان كانت لا تخلو من فائدة فلسفية عملية كالبحث عن اصل الانسان وكيف وجد وفي اي زمن وهل طوائفهُ كلها من اصل واحد . واهتمام الغربيين بهذه المباحث عظيم جدًّا يجمعون لها النقود وينشئون المتاحف ويرسلون البعثات الى اقاصي الارض للبحث والتنقيب . فهل يتاح لنا يوماً ما ان ينشأ بيننا من يعنى بهذه المباحث بعض عنايتهم بها ؟

دلالة الاعضاء الأثرية

في جسم الانسان اعضاء كثيرة لا وظيفة لها الآن . ولا يستطاع تعليل وجودها تعليلاً معقولاً الاَّ اذا حسبنا ان الانسان منحدرٌ او بالحري مرتقٍ من حيوانات كانت تأوي الى اغصان الاشجار . ولكثرة هذه الاعضاء وضع الاستاذ دورد جونز كتاباً خاصًّا بها سمَّاهُ « الانسان الشجري » حتى لقد قيل انهُ لو لم توجد الاشجار لما وجد الانسان على حالتهِ الراهنة

فاذا كان هذا الاستنتاج صحيحاً تطلعنا بحكم الطبع الى القردة العائشة الآن لنفهم حالة الاحياء المنقرضة التي تسلسلنا منها . فالعلاقة التي بين الناس والقردة لها اساس علمي ولا تعتمد على خيال بعض المفكرين فقط . على ان العلم لا يعترف قط بان القردة الحية الآن هي سلالة القردة التي نشأ منها الانسان من غير ان يطرأ عليها تغير ما . لانهُ كما ارتقى الانسان على مرّ العصور حتى اصبح منتصب القامة هكذا ارتقت القردة فصارت اعظم براعة في تسلق الاشجار . والاصل الحيواني العام الذي نشأ منهُ فرعا القردة والانسان لم يكن

منتصب القامة كالانسان ولا بارعاً في تسلّق الاشجار كالقردة الآن . وما يقال في هذه الصفة يقال في صفات كثيرة اخرى امتاز بها الانسان او امتازت بها القردة بعد انفصال فرعيهما من اصل عام . فالعلم اذاً يشير الى اصل حيواني عام متنقل في التاريخ نشأ منهُ الانسان والقرد في خطين منفرجين يزيدان انفراجاً كلما نشأت صفات جديدة في ابناء كل فريق منهما تختلف عن صفات الفريق الآخر . والمرجح ان هذا السلف العام كان يسمى قرداً لو كان حيًّا الآن الا أن تسميتهُ كذلك ليست الا على سبيل التجوز لانهُ يختلف كل الاختلاف عن القردة المعاصرة

على ان الحيوانات التي انقرضت في العصور الغابرة لم يحفظ منها في طبقات الارض سوى الاجزاء الصلبة من اعضائها التي تقاوي انياب الدهر وتقاوم فعل الانحلال . لذلك يتعذر علينا ان نجد من آثار اسلاف الانسان والقردة شيئاً سوى بعض العظام والاسنان . ومن هذه الآثار يستطيع العلماء ان يستنتجوا وصف الاعضاء التي انحلّت وفنيت وان يتصوروا شكلاً عامًّا للقرد او للانسان التي وجدت آثاره

اسلاف القردة والانسان

ان ما يعرف عن القردة التي نشأ منها فرعا الانسان والقردة المعاصرة نزرٌ واقدم الآثار المعروفة بعض فكوك سفلى صغيرة وبعض انياب ضعيفة وجدت في مصر . ويليها في القدم فكوك واسنان لنوع من القردة يدعى الجبون وسمادين حجمها قدر حجم الشمبانزي وجدت في اوربا الوسطى وفرنسا واسبانيا . ولم يوجد من هياكل هذه الحيوانات سوى عظمة واحدة هي عظمة الفخذ . ثمَّ عثر على فكوك واسنان كثيرة في الهند ولكنها خاصة بانواع مختلفة من القردة . وقد وجدت حديثاً جمجمة غير تامة لحيوان حديث السن في بلدة تونلغ بجنوب افريقية . وصفات هذه الجمجمة لا تختلف اختلافاً كبيراً عن صفات قرد معاصر حديث السن . الا انَّ فراغها في حالة لا تمكن الباحث من موازنة علمية دقيقة

ان مميزات الهيكل العظمي في طائفتي القردة والناس خاصة بكل نوع منهما لذلك يسهل تمييز هيكل الواحد عن هيكل الآخر . ففراغ الجمجمة في القرد حيث يستقرُّ دماغهُ اصغر من فراغها في جمجمة الانسان . وعظام الوجه بالنسبة اليها اكبر في القرد منها في الانسان واكثر بروزاً . أما جمجمة الانسان فاكبر وجهه عالية عريضة . ثالثاً ترى عظم الحاجب فوق العينين في جماجم القردة اكثر بروزاً وتكاد لا ترى لبروزه اثراً في جبهة انسان معاصر كما ترى في الصورة العليا . ثالثاً ترى عظم الذقن في القردة مرتدًّا الى الوراء والانياب كبيرة متراكبة كما تراها في فم كلب او قطة . اما في جمجمة انسان حديث فترى عظم

الذقن بارزاً والاسنان غير كبيرة وتنتظم مع باقي الاسنان كأنها حبات في سمط . وابهاً في كل انواع القردة حتى نوع الجبون نجد السلسلة الفقارية مستقيمة. اما في الانسان الحديث فهي شبيهة بحرف S وذلك لتمكن الانسان من الانتصاب . خاصاً في كل انواع القردة الحيّة نجد الذراعين اطول منهما في الانسان اذا حسبت النسبة بين طول الذراعين وطول بقية الاعضاء .والابهام الاكبر في رجل القرد ممدّ للسك كالابهام في يد الانسان. سادساً ان عظمة الفخذ في القرد مقوّسة قليلاً على الغالب وعظم القصبة قصير ونحيف وفقاً لمقتضيات القامة المقرفصة . أما عظمة الفخذ في الانسان الحديث فمستقيمة لانهُ منتصب القامة

فاذا كان الرأي القائل بان اصل الانسان والقرد يرجع الى اصل قردي سابق لكليهما وجب ان تكون اقدم الهياكل العظمية الانسانيه التي يعثر عليها اكثر مشابهة لهياكل القردة في الامور المتقدم ذكرها من هيكل الانسان المعاصر . اي انهُ لا بدَّ لنا من ان نجد بين الاحافير حلقات مفقودة . ولكن درس آثار الحيوانات المتحجرة تدل دلالة واضحة على اننا لن نستطيع العثور على سلسلة مطردة الارتقاء من الهياكل العظمية تصل بين القرد القديم والانسان . وما ينتظر العثور عليه انما هو اشكال مختلفة يقترب فيها الانسان القديم في صفات مختلفة من مميزات القردة . والخلاصة ان نوع الانسان الذي يملك الارض الآن انما هو نتيجة محاولات مختلفة حاولتها الطبيعة لتخلق نوعاً من الاحياء يستطيع بدماغهِ الكبير المعقّد التركيب ان يقوى ويسيطر على سائر اشكال الحياة

انسان جاوى

والصعوبة في البحث عن اصل الانسان قلة الآثار التي وجدت والتي يرجع تاريخها الى زمن قبل الزمن الذي تعلم فيهِ الناس دفن موتاهم . قبل ذلك الوقت لم يتيسر لآثار انسان ما ان تحفظ الاّ اذا اتفق لها ان تقع في ثقب من الارض او قعر نهر او بحيرة حيث يتراكم عليها الطمي والرمل والحصى فتحفظ كذلك . وقد عثر حتى الآن على آثار عظمية لاربعة او خمسة من هؤلاء الناس الذين اتيح لهم ان تحفظ عظامهم اتفاقاً

واول هذه المكتشفات تمَّ على يد الاستاذ اوجين ديبوى سنة ١٨٩٢ في قعر نهر قديم بجزيرة جاوى ووجد معها وبقربها في طبقة الارض ذاتها آثار انواع منقرضة من الفيل ووحيد القرن وغيرها من الحيوانات الماثلة لها التي تمتُّ بصلة القربى الى بعض الحيوانات التي لا تزال حيَّة الآن في جزائر الهند الشرقية . وأعظم قطعة عظمية وجدها الاستاذ ديبوى كانت القطعة العليا من جمجمة حجمها حجم جمجمة رجل صغير ولكن

عظم حجاجيها فوق العينين كبير شديد البروز يشبهُ حجاج القرود على انَّ آثار الدماغ في باطن الجمجمة تدل على ان صاحبها كان بشريًّا في صفته الاساسية . ووجد سنان ليسا مثل الاسنان البشرية ولكنهما شبيهان باسنان الجيون الذي يقطن بعض غابات جاوى الآن . أما عظمة الفخذ التي وجدت فستقيمة كعظمة الفخذ في انسان معاصر ولكنها مصابة بداء من طرفها الاعلى وقد يكون صاحبها منتصب القامة. فاذا كانت كل هذه الآثار العظمية تخص شخصاً واحداً ، وهذا مرجح ، فهي تمثل نوعاً من اسلاف الانسان كان قريباً من القردة بحجاجيه البارزين واسنانه او هو يمثل جيوناً كان لهُ دماغ اكبر من ادمغة الجيون في الغالب . لذلك دعي صاحب هذه الآثار « پيثاكانثروپوس » اي «القرد الانساني » والآثار محفوظة الآن في متحف تايلر بهارلم من اعمال هولاندة

انسان هيدلبرج

وقد تمَّ الاكتشاف الثاني لآثار انسانية مطمورة في طبقات الارض يرجع تاريخها الى قبل العهد الذي تعلم فيه الانسان ان يدفن موتاهُ ، على ايدي الاستاذ اوتو شوينتساك الالماني سنة ١٩٠٧ في طبقة كثيفة من الرمل رسبت في قعر نهر بلدة موَر قرب هيدلبرج ومن ثمَّ نسب صاحبها الى هيدلبرج . والاثر المهم الذي وجد كان فكًّا اسفل مع عظام واسنان يرجَّح انها لفيل ووحيد القرن وفرس النهر وغيرها من الحيوانات التي كانت تقطن اوربا في عصر البلستوسين . والفك كبير ضخم ومع انهُ يماثل الفكوك البشرية في اكثر مميزاته الاَّ انهُ يختلف عنها في ارتداد ذقنه الى الوراء فيماثل في ذلك فكَّ القرد . ولكن وجدت في الفك اسنان مثل اسنان الانسان منتظمة انتظاماً حسناً واسنانها متناسبة في حجمها مع باقي الاسنان . فهذا الاثر يمثل نوعاً من الناس دعي هومو هيدلبرجنسس اي انسان هيدلبرج ولكنهُ لم يكن قد ارتقى كلَّ الارتقاء بعدُ بدليل ارتداد عظمة ذقنه. وهذا الفك محفوظ الآن في المتحف الجيولوجي بجامعة هيدلبرج

انسان بلتدون

ثم كشف الاستاذ تشارلس دوسن سنة ١٩١٢ عن آثار في قعر نهر قديم في بلدة بلتدون من مقاطعة سسكس الانكليزية ويعود عهدها الى عصر البلستوسين في مفتتحه ، وكانت الآثار مؤلفة من قطعة من جمجمة انسان ونحو نصف فك اسفل فيه ضرسان وناب واحد ومعها آثار فيل وفرس نهر . اما الجمجمة فتشبه جماجم بعض الاقوام المنحطة الحية في ان عظمها كثيف ولكنها فريدة في ان بناء العظم خلوي يمكنهُ من مقاومة اللطم وتحمله . وهي كذلك خالية من ارتفاع عظمي الحاجبين فوق العينين فتشبه من هذا القبيل

جمجمة انكاري بمناصر جمجمة رودبس (١٩٢٠) جمجمة لاشابل (١٩٠٧)

صورة مبنية على الحيان والعلم للانسان الافريقي

مقتطف يونيو ١٩٢٩

امام الصفحة ٢٩

جمجمة انسان حديث وجبهتها عالية ولكن اعلى الرأس واطىء وكذلك عظمة القفا عريضة وواطئة اما الدماغ فالمرجح انهُ كان بشريًّا في مميزاته واكبر من اصغر دماغ بشري معروف الآن في مقداره . على ان الجمجمة على العموم غريبة والمرجح ان صاحبها كان انسانًا يختلف كلَّ الاختلاف عن الانسان الحديث . اما الفك الاسفل فضعيف ولكنهُ مستطيل يستدل منهُ على ان وجه صاحبه كان كبيراً وعظمة الذقن مرتدة الى الوراء تمامًا تقريباً ذقن القرود كل المماثلة فهو اقرب الى القرود من ذقن انسان هيدلبرج

اما الضرس فشبيه بالاضراس البشرية ولكنهُ يفوق المعتاد في حجمها وطولها. ويستدل من مكان الناب انهُ يطبق على الناب الذي في الفك الاعلى وهذا من مميزات القرود لانهُ يساعدها على تمزيق الفريسة الا انهُ يختلف شكلاً عن أناب القردة المعروفة ويشبه على الاكثر اناب الابن في الانسان الحديث . والحق يقال ان انسان بلتدون يرجع عهدهُ الى فجر الجنس الانساني ولذلك دعي ايوانثروبس اي « انسان الفجر » وهذه الآثار محفوظة في قسم الجيولوجيا بالمتحف البريطاني

جمجمة روديسيا والخليل

وفي سنة ١٩٢٢ وجد المعدنون في روديسيا بجنوب افريقية كهفاً فيه كثيرٌ من عظام الحيوانات ومعها ادوات صوّانية تدلُّ على ان ذلك الكهف كان مسكناً للانسان منذ عهد غير بعيد لان الحيوانات التي وجدت عظامها هناك من انواع الحيوانات العائشة الآن او تفرق عنها قليلاً . في هذا الكهف وجدت جمجمة بشرية تكاد تكون كاملة وهي تمثل سكان افريقية الاقدمين المماثلين للذين وجدت جماجمهم في اوربا وكانوا فيها في العصر الجليدي الاخير الذي يرجع علماء الجيولوجيا انهُ كان فيها منذ خمسين الف سنة الى ثلاثين الفاً وهم المعروفون بالجنس النيندرتالي نسبة الى وادي نيروميا حيث وجدت اول جمجمة وصفت من هذه الجماجم. الا ان المكان الذي وجدت فيه جمجمة روديسيا يبعد نحو اربعة آلاف ميل عند جنوب اوربا حيث وجدت جماجم النيندرتال . وشكلها يدلُّ على ان سكان روديسيا الاقدمين كانوا احط في السلسلة البشرية من الذين وصلوا الى اوربا لما كانت متصلة بافريقيا . الا ان الاستاذ ودورد الجيولوجي يرى ان الجنسين مختلفان كثيراً والروديسي ارقاهما

ثم وجد في رواسب متضدة في كهف تبعة قرب طبرية بالجليل القسم الاماي من جمجمة بشرية قديمة جدًّا ومن مزاياها بروز حجاجي العينين وغور الجبهة كما في الشمبانزي هذا ويطابق طراز جماجم نيندرتل الاوربية التي لم يعثر على ما يماثلها من قبل في قارة اسيا. والمرجح ان تاريخها يرجع الى العصر الحجري القديم